ملحق صوتى

فى الضاد والظاء

ملحق صوتي في الضاد والظاء

اشتهرت عبارة «الناطقون بالضاد»، وزعم أهل اللغة أن الضاد خاصة بالعرب[1]، وليس شيء منها في لغات العجم، والضاد من الحروف المجهورة ومن الأصوات المستعلية، هكذا قالوا.

وذهب المعاصرون، ومنهم الدكتور ابراهيم أنيس وهو ينظر إلى نطق الضاد لدى المصريين إلى «أن لاتختلف عن الدال في شيء سوى أن الضاد أحد أصوات الإطباق، فعند النطق بها ينطبق اللسان على الحنك، لأعلى متخذاً شكلاً مقعراً، كما يرجع إلى الوراء قليلاً».

وقال أيضاً: فالضاد الحديثة صوت شديد مجهور يتحرك معه الوتران الصوتيان، ثم ينحبس الهواء عند التقاء طرف اللسان بأصول الثنايا بالعليا. فإذا انفصل اللسان عن أصول الثنايا سمعا صوتاً انفجارياً هو الضاد كما نطق بها في مصر»[2].

إن هذا الذي أثبته الدكتور ابراهيم أنيس من نطق المصريين للضاد في ضوء ما أفاد من التجارب المعملية غير نطق الأوائل لها كما قال الخليل بن أحمد ومن نحا نحوه، وهو الذي نجده في المعجمات وفي كتب القراءات.

إن الضاد القديمة كما أثبت الأستاذ ابراهيم أنيس «أقل شدة مما ننطق بها الآن، إذ معها ينفصل العضوان المكونان للنطق انفصالاً بطيئاً نسبياً، وترتّب عليه أن حلّ محل الانفجار الفجائي انفجار بطيء نلحظ معه مرحلة انتقال بين هذا النوع من الأصوات وما يليه من صوت لين، فإذا نطق بالضاد القديمة وقد وليتها فتحة مثلاً، أحسسنا بمرحلة انتقال بين الصوتين، نميّز فيها كل منهما تميزاً كاملاً.

وقال: «إن الضاد كما وصفها القدماء كانت تتكون بمرور الهواء بالحنجرة فيحرك الوترين الصوتين ثم يتخذ مجراه في الحلق والفم، غير أن مجراه في الفم جانبي ـ عن يسار الفم عند

(١) قال الخليل في كتاب العين: إن الظاء حرف عربي خص به العرب لا يشركهم فيه أحد من سائر الأمم.

(٢) ابراهيم أنيس، الأصوات اللغوية ص ١٩٧.

أكثر الرواة أو عن يمينه عند بعضهم أو من كلا الجانبين كما يستفاد من كلام سيبويه. ويظهر أن الضاد القديمة كانت عصية النطق على أهالي الأقطار التي فتحها العرب، أو حتى على بعض القبائل العربية في شبه الجزيرة، مما يفسر تلك التسمية القديمة «لغة الضاد» ....

وقال: والذي نستطيع تأكيده هنا هو أن الضاد القديمة قد أصابها بعض التطور حتى صارت إلى ما نعهده لها من نطق مصر. وأن هذا التطور كما قد تم في عهد ابن الجرزي، أي في القرن الثامن الهجري. فهو يقول في كتابه التمهيد إن المصريين وبعض المغاربة ينطقون بالضاد المعجمة طاء مهملة ....»[1]..

أقول: إن الذي خلص إليه الأستاذ أنيس من قدم ما أصاب الضاد في نطقها واختلاف أهل مصر عن النطق القديم كان قد بدأ في القرن الثالث الهجري بعد أن عرف شيء منه في آخر القرن الثاني كما دلّ على ذلك الاستقراء.

ثم إن «الضاد» قد ذهب بها في النطق إلى الظاء، وهذا هو الذي انتهينا اليه في عصرنا فأكثر العرب لا يفرقون بينهما اللهم إلا من ذهب بالظاء إلى قليل من الزاي كما في نطق من يقول: «عظيم» في ظاء مشوبة بالزاي.

ان عبارة «لغة الضاد» أصيلة، لكن هذه الأصالة لم يحتفظ بها العرب وإن التزموا بترادها حماسة وزهواً. وأن ما يردّده أهل العلم من الحديث الشريف «أنا أفصح من نطق بالضاد...» شيء لم يكن له هذه المنزلة لدي علماء الحديث، غير أن أهل اللغة لا يعنيهم أمر صحة الحديث. ومع هذا فإننا نجد رواية للحديث غير هذه الرواية وهي:

«أنا أفصح العرب بيدَ أني من قريش ونشأت في بني سعد»[2].

وأعود إى «الضاد» فأجد أن نطقها في عصرنا غير نطقها الذي قال عنه سيبويه: «إنه ليس شيء من موضعها غيرها»[3]، وهذا يعني أن لها نطقاً فريداً يختلف عن نطق الظاء الذي ساد في نطق عامة العرب في عصرنا، وعن نطق المصريين القريب من الدال أو قل: إنها دال مفخّمة.

---

(١) المصدر السابق ص ١٩٨.

(٢) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة «بيد» وانظر «لسان العرب».

(٣) الكتاب ٤٠٤/٢.

وقد أشار إلى هذا المستشرق الألماني «برجشتراسر» في كتابه «التطور النحوي»، فقال: «.... فالضاد العتيقة حرف غريب جداً غير موجود علي حسب ما أعرف في لغة من اللغات الـ العربية، ويغلب علي ظني أن النطق العتيق لا يوجد الآن عند أحد من العرب»[1].

وإلى مثل هذا ذهب اليازجي فقال: «وأما لفظ الضاد فإنّا لم نسمع من يحكمه لهذا العهد على ما رسمه علماء العربية من مخرجه، والظاهر أنه لكثرة اختلاط العرب بغيرها مع فقد هذا الحرف من لغات الأعاجم ضاع في موضعه من الألسنة ولم يبق من يحقق لفظه»[2].

أقول: لمح سيبويه بداية انحراف صوت الضاد إلى ما دعاه «الضاد الضعيفة».

إن هذه «الضاد الضعيفة» قد ورد في كلام ابن يعيش حيث قال:

«والضاد الضعيفة من لغة قوم اعتاصت عليهم فربّما أخرجوها ظاءً، وذلك أنهم يخرجونها من طرف اللسان وأطراف الثنايا، وربّما راموا إخراجها من مخرجها فلم يتأتّ لهم ذلك فخرجت بين الضاد والظاء»[3].

أقول أيضاً: لقد دلّ الاستقراء على أن الضاد صوت صعب فيه من الشدة ومن دقة الإخراج ما يمكن أن لايكون لدي كثير من المـعربين، وهذا إيذان بالانحراف والانزلاق إلى ما يقرب من صوت الظاء حتي كان الاختلاط. لقد حدث هذا كما أشرنا في عصر متقدم، وإن بقي الـمعربون يمتدحون بنطق الضاد، كما قال المتنبي:

وبهم فخر كلّ من نطق الضا دَ وعَوذُ الجاني، وغوث الطريد

وذكر بروكلمان في كتابه «تاريخ الأدب العربي» أن لابن قتيبة أرجوزة في الضاد والظاء جاء فيها بطائفة من الألفاظ التي تكتب بالضاد، وأخري من التي تكتب بالظاء». وأنا استبعد أن تكون هذه الأرجوزة لابن قتيبية، وإن كان من رجال القرن الثالث[4]، ذلك أننا لم نجد شيئاً من هذا في ترجمته، وقد نشر الدكتور داود الحلبي هذه الإرجوزة[5].

(١) التطور النحوي ص١٠.

(٢) مجلة الضياء ٥٣/١.

(٣) شرح الـمفصل ١٢٧/١٠.

(٤) ابن قتيبة الدينوري أبو محمد عبد الله بن مسلم الـمتوفي سنة ٢٧٦هـ. انظر ترجمته في إنباه الرواة ١٤٣/٢ وبغية الوعاة (الطبعة الأولى) ص ٢٩١ وفي مصادر عدة أخري.

(٥) مجلة «لغة العرب» لصاحبها أنستاس ماري الكرملي ٤٦١/٧-٤٦٣.

غير أننا نجد أن رجال القرن الرابع الهجري قد عرفوا هذه المشكلة الصوتية فصنّفوا فيها، وكان من هؤلاء اسماعيل بن عباد المعروف بـ «الصاحب»[1] فقد صنف كتيّباً في هذه المسألة دعاه «الفرق بين الضاد والظاء».

إن هذه الكتب إنما جدّت وزادت في القرن الرابع الهجري كان من أجل غرض تعليمي تربوي وهو تعليم الناشئة المتأدبين الذين فقدوا سليقتهم اللغوية لاختلاط المجتمعات التي اندمج فيها العرب بغير العرب. وقد زاد الاختلاط في القرون التي توالت بعد القرن الرابع. وكان من زيادة هذه المشكلة أن أهل العربية قد أشاروا إليها طوال العصور، وهذا هو ابن مكي الصقلي وهو من رجال القرن الخامس الهجري قد أشار إلى هذه المسألة، وإلى أن المسألة تتصل باختلاط الضاد والظاء فقال:

«هذا رسم قد طُمس، وأثـر قد دَرَس من ألفاظ جميع الناس خاصتهم وعـامتهم، حتي لا تكاد تري أحداً ينطق بضاد ولا يميّزها عن ظاء. وإنما يوقع كل واحدة منهما موقعها، ويخرجها من مخرجها الحاذق الثاقب إذا كتب أو قرأ القرآن لا غير، فأما العامة وأكثر الخاصة فلا يفرّقون بينهما في كتاب ولا قرآن»[2].

وعرض للألفاظ التي عرض لها هذا الخلط بين الصوتين، فذكر الألفاظ التي هي بالظاء، وهي خمسون كلمة، وقال: «وعلمت أن ما عداها مما يكثر استعماله فهو بالضاد».

وعلي هذا صار التصنيف في هذه المسألة يراد منه أن يكون المتعلّم علي بيّنة مما يكتب بالضاد وما يكتب بالظاء علي نحو ما صنع الصاحب بن عباد.

وكان من هذا مقامة للحريري اشتملت على الكلم على كثير من الكلم مما ورد في هذين الصوتين.

وكذلك صنع ابن مالك صاحب الألفية كتاباً له أسماه «الاعتضاد في معرفة الظاء والضاد».

ومن المفيد أن أشير إلي من لم يَر أن العرب قد اختصّت بالضاد وهو القول الذي شاع وأثبت في كثير من المظان، ومن هؤلاء ابن فارس في كتابه «الصاحبي»[3] إذ قال:

---

(١) انظر ترجمه في إنباه الرواة ٢٠١/١، ومعجم الأدباء ١٦٨/٦ ومصادر أخرى.

(٢) تثقيف اللسان وتلقيح الجنان (تـ عبد العزيز مطر) ص٩١.

(٣) الصاحبي ص٧، وقوله: «وزعم ناس» يشير إلى أن هذا مما ادُّعي وشاع...

«وزعم ناس أن الضاد مقصورة على العرب دون سائر الأمم».

على أن أهل عامة قد أثبتوا أن «الضاد أصعب الحروف في النطق» وهذا هو ما أثبته السيوطي في «الهمع» وأضاف: إنه من الحروف التي انفردت العرب بكثرة استعمالها، وهي قليلة في لغة بعض العجم ومفقودة في لغة الكثير منهم»[1]. وسنري السيوطي في «المزهر» يثبت ما كان من الاختلاط بين الضاد والظاء فيذكر أمثلة من ذلك.

ولنستقر هذه الألفاظ التي تردّد فيها المعربون بين الصوتين فكان من ينطق بها ضاداً ومن ينطق بها ظاء.

ذكر السيوطي في «المزهر»[2]:

«الحُضَض والحُظَظ» وهو من الصمغ مثل الصَّبر وقيل الكحل. وقد أشار السيوطي إلى ورود هذا في «جمهرة» ابن دريد.

و«حَظِلت النخلة وَحضِلت»، إذا فسدت أصول سعفها.

وسمعت «ظباظِب الخيل وضاضبها» أي أصواتها.

و«العضّ والعظ» وأشار إلى كتاب «الفرق» للبطليوسي.

و«الأرظ والأرض» لقوائم الدابة، وقال: والأشهر فيه الضاد.

ويقال للجماعة من الناس إذا خرجت في الغزو «هيظلة وهيضلة»، وقال: والضاد أشهر.

و«ماء مظفوف ومضفوف»، إذا كثر عليه الناس، وقال: حكاه الشيباني بالظاء، وحكاه الخليل بالضاد.

وذكر: ويروي أن رجلاً قال لعمر بن الخطاب: ما تقول في رجل «ظحّى بضبي»؟ فعجب عمر ومن حضره من قوله، فقال: يا أمير المؤمنين إنها «لغة» وكسر اللام، فكان عجبهم من كسر لام لغة أشد من عجبهم من قلب الضاد ظاء، والظاء ضاداً.

أقول: وفي «الصحاح»: «التقريظ» مثل «التقريض»، وفلان يقرّض صاحبه إذا مدحه أو ذمّه.

---

(١) همع الهوامع ٢٢٨/٢.

(٢) المزهر ٥٦٢/١.

وجاء فيه أيضاً «ضري» بالضاد، والكلمة بالظاء لدي آخرين، و«الظَّرَوْرَ»: الكيّس، وظَرِيَ يظرَي إذا كاس وحذق، واظرَورَي الرجل: أتخم فانتفخ بطنه، داوية ووبائية[1].

وجاء في كتب أيضاً، وكذلك في الـمزهر»:

«فاظت نفسه» وقالوا: هي لغة أهل الحجاز وطيّء، و«فاضت» وهي لغة تميم وقيس.

وقال أبو زيد وأبو عبيدة: فاظت نفسه بالظاء لغة قيس، وبالضاد لغة تميم.

وروي الـمازني عن أبي زيد: أن العرب تقول: «فاظت نفسه» إلا بني ضبّة فإنهم يقولون: «فاضت» بالضاد[2].

أقول: وقد تبين من هذا أن الاختلاف فيما هو ضاد أو ظاء في طائفة من الكلم أمر خاص بلغات القبائل[3].

أقول أيضاً: ومن لغات القبائل قولهم: «الضَّبِل» للداهية، ولغة ضبّة بالصاد.

وإذا عدنا إلى مادة «ضلع» وجدنا شيئاً منها في «ظلع» وهو معنى «الميل».

وقد نلمح هذا في «الظُّهر» و «الضُّهر».

ومن هذه الألفاظ التي عرض لها هذا الخلط أيضاً:

«جضّ» أي مَشَى، وقريب منها «جظّ» أي عدا.

---

(١) انظر «الصحاح» ضري، وانظر المعجمات الأخري.

ومن المفيد أن أشير أن الفعل «اظرَوَي» قد قال فيه الأصمعي «اطرَوْرَي» بالطاء المهملة، انظر: «طرا» في «لسان العرب»، وقد أشار ابن جني فيما ذكره صاحب «اللسان» إلى «ان الظاء لا يوجد في كلام النبط فإذا وقعت فيه قلبوها طاء». أقول: ومن هنا لابد أن يكون «الناطور» والفعل «نطر» من كلام النبط أي الآراميين وأضيف إلى العربية وشاع، والأصل «نظر».

ومن هذا قولهم: ذهب دمه طَلَفاً وظَلَفاً أي هدراً.

(٢) انظر «الـمزهر» ٥٦٢/١.

(٣) على أن رسم الضاد مثل رسم الصاد قبل أن يكون الفرق بالاعجام، وهذا مما أضاف إلى الـمسألة إشكالاً فقد قالوا: قضاقض، وقصاقص من أسماء الأسد. والـمنقاض والـمنقض و«الـمنقاص» للمنشقّ طولاً، و«انقاصت البئر وانفاضت أي انهارت. ومنه حصب وحضب وحطب، وبذلك قرئ بها في قوله تعالى: «حضب جهنم» انظر الآية في كتب التفسير عامة.

و«بهَضَه» الأمر: غلَبه وثقل عليه، وكذلك «أبهظَني».

و«بضّ» أوتاره: حرّكها ليُهيّئها للضرب، و«بظّ».

وجاء في «البيان والتبيين» ٢/٢١٥:

«كان رجل بالبصره له جارية تسمي ظمياء فكان إذا دعاها قال: يا ضمياء، بالضاد، فقال له ابن المقفّع: قل يا ظمياء، فناداها: يا ضمياء. فلما غيّر عليه ابن المقفّع مرتين أو ثلاثا، قال: هي جاريتي أو جاريتك!».

ثم آتي إلى قوله تعالى: ﴿وما هو على الغيب بضنين﴾ ٢٤ سورة التكوير.

أقول: وقرئ: «بظنين» بالظاء.

وكان ابن جرير الطبري في تفسيره قد أشار إلى أن هذه قراءة قليلة وهي خلاف المشهور: وقال: «وأولى القراءتين بالصواب عليه خطوط مصاحف المسلمين متفقة وذلك «بضنين» بالضاد»[1].

وذهب الزمخشري إلى أن الكلمة في مصحف عبد الله بن مسعود بالظاء وفي مصحف أبي باضاد. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ بهما.

وقال الزمخشري: «وإتقان الفصل بين الضاد والظاء واجب، ومعرفة مخرجيهما مما لابد منه للقارئ، فإن أكثر العجم لا يفرّقون بين الحرفين، وإن فرّقوا ففرقاً غير صواب وبينهما بون بعيد؛ فإن مخرج الضاد من أصل حافة اللسان وما يليها من الأضراس من يمين اللسان أو يساره، .... وأما الظاء فمخرجها من طرف اللسان وأصول الثنايا العليا، وهي أحد الأحرف الذولقية.....»[2].

أقول: إن الذي أثبته في هذه الآية من القراءة المشهورة، ثم من القراءة الأخرى التي ورد فيها «ظنين» بالظاء على اختلاف الدلالة في «ضنين» و «ظنين»، مفيد، وذلك لأن الرسول الكريم قد سمعت منه القراءتان. إن هاتين القراءتين لهذه الكلمة تشيران إلى أن الاختلاط بين الصوتين كان قد عرف في تلك الحقبة المتقدمة من تاريخ العربية، وهي حقبة عصر القرآن. ثم إن ما عرفناه من أمر ما قيل من اختلاف القبائل في شيء من الألفاظ لابد أن كان

(١) تفسير الطبري ٣٠/٨١.

(٢) الكشاف (ط. الاستقامة ١٩٥٣) ٤/٥٧٠.

قد عرض لطائفة أخري كبيرة لم يصل إلينا من أمرها الكثير. إن هذا كله يعني أن الصوتين قد اختلطا، وذلك لصعوبة إخراج الضاد وعسره، وبسبب في ذلك انحرف هذا الاخراج شيئاً بعد شيء إلى مخرج الظاء.

أقول: وهكذا صار الضاد ظاءً مشالة في جميع بلاد العرب إلا مصر فإن المصريين ذهبوا بالضاد إلى دال مفخّمة وليس إلى الطاء كما يستفاد مما ذهب إليه الدكتور ابراهيم أنيس وإن لم يقطع بهذا مبيّناً قوله على نحو واضح.

إن الضاد وقد تحوّلت إلى الظاء في عصرنا أحدثت مشكلة تربوية للمتعلمين، والمعلم في المدرسة الابتدائية وغير المعلم في المدارس الثانوية والمعاهد العالية محتاج إلى أن يوضح هذا، وهو يملي كلامه مثلاً ويجيء فيه قوله: «تضافرت الجهود» إلى أن يقول: بالضاد أخت الصاد، وليست الضاد قريبة من الصاد إلا في الرسم، والفرق هو الإعجام والإهمال. ويقول في كلمة «الظفر» بالظاء أخت الطاء أيضاً.

هذا كله يدعوني إلى القول باستفهام فيه إيماء إلى إنكار قولتنا الشائعة وهي: «الناطقون بالضاد» فأين هؤلاء في عصرنا؟

وقد بدا لي أن أختم هذا الموجز بشيء كتبته منذ سنين وجدته مما يكمل ما أنا فيه.

أقول: لقد غبر عليّ زمان طويل أعالج فيه النحو القديم إفادة وتدريساً وتصنيفاً. وقد بدا لي وأنا في هذا الدأب القديم أن النحو صنعة قديمة قد تخرج كثيراً فيشرق لها وجه تأخذ ومن سماحة العربية وسعتها، غير أنه حبيس قوالب في الأعم الأغلب، وهو مصنوع موضوع. وكأنّ النحويّ لا يبالي بما هو موضوع، لأن هذا المفتعل الذي رُمّ بناؤه يفضي بالنحوي إلى القاعدة، وإلى ما يفتعله في صنعة[1].

والنحاة في هذا، سواء منهم المتقدم واللاحق المتأخر، وإن كان المتأخرون قد توسّعوا في

(١) ولنضرب لذلك مثلاً وهو ما ذهبوا إليه من «التوهّم» في بيت زهير:

بدا ليَ أنّي لستُ مدركَ ما مضَى ولا «سابـق» إذا كـان جـائيـا

وإيرادهم هذه الرواية بجرّ «سابق» على التوهم كما زعموا، أي أنه توهم معطوفاً على «مدرك» الذي من حقه الجرّ بإلياء الزائدة.

أقول: ورواية الديوان في صنعة تغلب وصنعة الأعلم: «ولا سابقاً» على الصحيح المأنوس البعيد عن هذا «التوهم» والتصوّر المفتعل، فأين علمهم هذا من السماحة والفصاحة؟ ومثل هذا كثير.

الصنعة وأحدثوا فيها ما ينأي عن الفصيح المأنوس، وكأنّي مع الإمام ابن حزم الأندلسي في «رسالة مراتب العلوم»[1] التي قال فيها: «واللغة هي ألفاظ يعبّر بها عن المعاني فيقتضي من علم النحو كل ما يتصرف في مخاطبات الناس وكتبهم المؤلفة، ويقتضي في اللغة المستعمل الكثير التصرف. وأقل ما يجزئ من النحو «كتابه الواضح» للزبيدي[2]، أو ما نحا نحوه «كالموجز» لابن السراج[3]، وما أشبه هذه الأوضاع الحقيقية، وأما التعمّق في علم النحو ففضول لا منفعة بها، بل هي مشغلة عن الأوكد، ومقطعة دون الأوجب والأهم. وإنما هي «تكاذيب» فما وجه الشغل بما هذه صفته؟

وأما الغرض من هذا العلم فهي المخاطبة، وما بالمرء حاجة إليه في قراءة الكتب المجموعة في العلوم فقط، فمن يزيد في هذا العلم إلي إحكام كتاب سيبويه فحسَن، إلا أن الاشتغال بغير هذا أولى وأفضل، لأنه لا منفعة للتزيّد على المقدار الذي ذكرنا إلا لمن أراد أن يجعله معاشاً، فهذا وجه فاضل لأنه باب من العلم على كل حال».

وكأن في عبارة أبي عثمان الجاحظ في هذا الشأن إصابة للغرض دون النيل من النحويين الذين يعاشرهم ويعايشهم، فقد قال في إحدى رسائله: «وعويص النحو لا يجري في المعاملات، ولا يضطرّ إليه شيء، فمن الرأي أن يعمد به في حساب «العقد» دون حساب الهند....»[4].

أقول: لقد توسّع النحاة في أبوابهم، وقد أهملوا ما كان عليهم أن يباشروا الكلام عليه، وهو درس «أصوات العربية»، وعامة النحويين فدخلت مصنفاتهم في هذا الباب إلا ما كان من سيبويه في «الكتاب» إذ عقد باباً في «الإدغام»[5] تكلّم فيه على مخارج الحروف وأحيازها وعلى شيء من صفاتها، وفيه تضمين لأقوال الخليل مع إضافات كثيرة خالف فيها سيبويه

(١) رسالة مراتب العلوم في «رسائل ابن حزم الأندلسي» تحقيق إحسان عباس ص٦٦.

(٢) هو محمد بن الحسن، نحويّ الأندلس، صاحب «الطبقات» انظر: بغية الوعاة ٨٤/١.

(٣) هو محمد بن السري البغدادي، أخذ عن المبرّد، وتوفي سنة ٣١٦هـ، صاحب «أصول النحو»، انظر: كتب «طبقات النحويين» كافة.

(٤) رسائل الجاحظ (ط. الخانجي) ٣٨/٣.

(٥) الكتابة ٤٣١/٤.

أستاذه، وما كان من مشاركة ابن جني في كتابه «سرّ صناعة الإعراب»[١]. ولا ننسى «شرح المفصل» لابن يعيش، وفوائد صوتية نقف عليها في «تفسير» الفخر الرازي.

وعامة النحويين قد استغنوا عن هذا العلم، وكأنه ليس من النحو الذي شغلوا به[٢].

والضاد يقتضينا أن نلحق به الظاء لأن كليهما صارا من المواد المشكلة منذ عصور متقدمة، ذلك أن الضاد قد ضيّعه المعربون فصار كالظاء سواء بسواء. إن الضاد والجيم والشين في حيّز واحد، وهذه الأحرف الثلاثة هي الحروف الشجرية[٣] من الحروف المجهورة، وهي تسعة عشر حرفاً، وأما الظاء فقد روي الليث أن الخليل قال: الظاء حرف عربيّ خُصَّ به لسان العرب لا يشركهم فيه أحد من سائر الأمم، وهو من الحروف المجهورة، والظاء والذال والثاء في حيّز واحد، وهي الحروف اللثوية لأن مبدأها اللّثة، والظاء حرف هجاء يكون أصلاً لا بدلاً ولا زائداً[٤].

وقد شُغل الأقدمون بالضاد فوصفه سيبويه في «الكتاب» وصفاً كان مادة من خلفه من أهل العربية، كما شُغل به المعاصرون ولاسيما المستشرقين الذين نظروا إلي الضاد العربية التي لا نظير لها في اللغات السامية غير العربية، عدا ما كان منها في النقوش إليمنية، وأثر قليل في بعض اللغات الأثيوبية كالجعزية مثلاً. وكأن هؤلاء الدارسين بنوا على وجود الضاد في العربية وبعض لغات جنوبي بلاد العرب وجودها في السامية القديمة الأم[٥]، وهذا محض افتراض

---

(١) سر صناعة الإعراب (ط. دار القلم بدمشق).

(٢) جاء في معجم الأدباء ١٩٥/٥: «حضر مجلس الكسائي أعرابيّ، وهم يتحاورون في النحو فأعجبه ذلك، ثم تناظروا في التصريف فلم يهتد إلى ما يقولون ففارقهم وأنشأ يقول:

مازال أخذهم في النحو يعجبني حتي تعاطوا كلام الزنج والروم
بمفعل فعلٍ لا طاب من كلم كأنه زجل الغربان والبوم

(٣) لسان العرب (الضاد). وانظر: سرّ صناعة الإعراب ٢١٣/١-٢١٥.

(٤) المصدر السابق (الظاء)، وانظر: سر صناعة الإعراب ٢٢٧/١-٢٢٨، وفيه أن الظاء لا توجد في كلام النبط، فإذا وقعت فيه قلبوها طاءً، ولهذا قالوا: «البرطلّه»، وإنما هو «ابن الظلّ»، وقالوا: ناطور، وإنما هو ناظور.

(٥) C. Brockelmann, Semitische Sprachwissenshaft (Leipzig1906) P. 5t; W. I. eslau, The semitic phonetic system, in. Kaiser (ed). Manual of phonetic (Amesterdam 1959).

J. Cantineau, Le Consonnutisme du semitique. Etudes de Linguistique Arabe (Paris 1962) pp. 240-5.

S. Mosati, An introduction to the comparative Grammar al semitic languages Wiesbaden 1967 p. 27.

ذلك أنهم افترضوا أن العربية قد ورثت الضاد من السامية الأم، وأن في تلك الضاد شيئاً من صفات الظاء اللثوية، وكأنهم أخذوا هذا من ضياع صوت الضاد في العربية المعاصرة.

أقول: لعل ضياع «صوت الضاد الشجرية» كان قديماً، وأن نطق الضاد كما رسمه الخليل وسيبويه هو أوّل حافة اللسان وما يليه من الأضراس[١]. ويجوز نطقها من الجانب الأيمن أو من الجانب الأيسر، إلا أنّ نطقها من الجانب الأيمن أصح، وهذا يثبت أن الضاد صوت الخرافي. ومن جهة أخرى أنهم نعتوا الضاد بأنه حرف رخو مطبَق، وبأنه ليس له مقابل منفتح[٢]. وقد أضافوا إلى هذا الحرف صفة «الاستطالة» بسبب استطالة مخرجه[٣].

وزاد ج كانتنو[٤] فقال: إن هذا التجديد ليس كافياً تمام الكفاية إذ يجوز معه التردّد في نطق هذا الحرف بين دالٍ مفخمة ذات زائدة لامية وبين الظاء ذات الزائدة الانحرافية، وبين الزاي المفخّمة ذات الزائدة الانحرافية: إلا أن اتجاه تطور هذه الأحرف لا يترك لك أي شكّ في هذا الصدد، فالنطق القديم كان «ظْ لْ» أي ظاء ذات زائدة الخرافية، أي بتقريب طرف اللسان من الثنايا كما في النطق بالظاء، وبأن يجرى النفَس لا من طرف اللسان فقط بل من جانبيه أيضاً[٥].

أقول: كأن النطق العسير لصوت الضاد أعان على انحرافها وتغييرها، ومن هنا كانت الضاد الضعيفة عند سيبويه.

جاء في «الكتاب»[٦]: وتكون (أي الحروف) اثنين وأربعين حرفاً «بحروف» غير مستحسنة ولا كثيرة في لغة مَن ترتضَي عربيته، ولا تستحسن في قرآءة القرآن ولا في الشعر، وهي: الكاف بين الجيم والكاف، والجيم التي كالكاف، والجيم التي كالشين، والضاد الضعيفة والصاد التي كالسين، والطاء التي كالتاء، والظاء التي كالثاء، والباء التي كالفاء.

---

(١) الكتاب (ط باريس ص ٥٤٣)، شرح المفصل ١٠/١٢٤-١٢٥.

(٢) الكتاب ٢/٤٥٤-٤٥٥.

(٣) النحو العربي لـ هوول Howell ٤/١٧٠٧-١٠٧٩.

(٤) دروس في علم أصوات العربية ص ٧٥-٧٦ (ترجمة صالح القرمادي). وينظر حاشية المؤلف التي أشار فيها إلي آراء أهل اللغة من المستشرقين.

(٥) الكتابة (طبعة هارون) ٤/٤٣٢.

(٦) المصدر السابق.

وعلى هذا يكون مصطلح سيبويه وهو «الضاد الضعيفة» هو بداية الانحراف نحو الظاء، ويدلّنا على هذا ما ورد في «شرح السيرافي»[1].

ولنعرض لقول الرسول الكريم ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «أنا أفصح من نطق بالضاد بيدَ أني من قريش ونشأت في بني سعد»، وفي رواية أخري: «أنا أفصح العرب بيدَ.....»[2].

أقول: والحديث يلمح إلي أن نطق الضاد عسير، وأنه ليس في طوق عامّة العرب. وإني لأستظهر على هذا الفهم بالرجوع إلى معني «بيدَ» وهو «غير»[3]، وعلى هذا يكون الوجه في الحديث: أني أفصح الذين نطقوا بالضاد غير أنّي من قريش. وهذا يعني أن لغة قريش لم تدرك غاية الفصاحة. وإني لأذهب إلى هذا أخذاً بمعني «بيد» التي لايمكن أن تذهب إلى شيء آخر، وهو الذي نصّ عليه الكسائي وغيره.

أمّا قوله: وقيل إن معناها في الحديث «على أنهم» فيشبه ما تأوّله علماء العربية الأقدمون والمعاصرون في الحديث الأول وهو أن معناها «لأنّي».

أقول: إن الذي ذهب إلى هذا الـمعني ممتحن بإيمانه من أن لغة قريش أفصح اللغات لأن الـمأثور عن الفرّاء قوله:

كانت العرب تحضر الموسم في كل عام، وتحجّ البيت في الجاهلية، وقريش يسمعون لغات للعرب فما استحسنوا من لغاتهم تكلّموا به فصارت لغتهم أفصح لغات العرب، وخلت من مستبشع اللغات ومستنقبح الألفاظ كالكشكشة والكسكسة[4].

أقول: إن هذا النظر إلى لغة قريش واستحسانهم لما أدركوا متأتّ من أن قريشاً قبيلة الرسول الكريم، ومن هنا كان إعظامهم لقريش وللغتهم. وقد يكون هذا واضحاً في قول ابن فارس:

---

(١) في «شرح السيرافي» أن هذه الضاد كانت تنطق كالظاء أو بين الضاد والظاء، وأقل من ذلك إبدال الضاد لاماً في نحو ما ذكروه من قول الشاعر منذور بن حيّة الأسدي في شطر:

مالَ إلى أرطاة حقف فالطَجَعْ

أي: فاضطجع، وانظر: شرح المفصل ١٠/٤٥-٤٦.

(٢) لسان العرب (بيد).

(٣) قال الكسائي: في الحديثين الشريفين قوله: «بيد» معناه «غير»، وقيل: «على أنهم» وهذا في الحديث الثاني.

(٤) الـمزهر ١/٢٢١.

«وأخبرني أبو الحسن أحمد بن سعيد مولي بني هاشم بقزوين، قال: حدّثنا ابو الحسن محمد بن عباس الحشكي، قال: حدثنا اسماعيل بن أبي عبيد الله قال: حدّثنا إسماعيل بن أبي عبيد الله قال: أجمع علماؤنا بكلام العرب، والرواة لأشعارهم والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومجالسهم أنّ قريشاً أفصح ألسنة وأسناهم لغةً، وذلك أن الله تعالى اختارهم من جميع العرب واختار منهم محمداً»[1].

وقال ثعلب في «أماليه»: «ارتفعت قريش إلى الفصاحة عن عنعنة تميم وتلتلة بهراء وكسكسة ربيعة وكشكشة هوازن وتضجّع قيس»[2].

إن استحسانهم لقريش ولغتها جعلهم يذهبون إلى أن هذه اللغة نزل بها القرآن، وحقيقة العلم أن لغة التنزيل قد اشتملت على لغات القبائل المختلفة.

أقول: إن استحسانهم هذه اللغة الخاصة دفعهم إلى أن يفسروا «بيد» في الحديث الأول بمعني «لأن». وعندي أن لغة قريش لا يمكن أن تكون أفصح اللغات، ذلك أن قريشاً تقصدها جمهرة القبائل من كل مكان للحج والميرة، ومن العلم أن البلاد التي يلتقي فيها جمهور من الخلق لابد أن ينال الضيم لغتها، والدليل على هذا ما هو واقع في عصرنا، فلغة الحواضر الكبيرة لا يمكن أن تحتفظ بصفائها ونقائها. وهذا الفهم يفرض علينا أن نقول: إن «بيد» في قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «أنا أفصح من نطق بالضاد بيد أنّي من قريش» يكون معناها «غير».

ولو صحت رواية الحديث المتقدم وهي: «أنا أفصح من نطق بالضاد...» لكانت إخباراً منه ـ صلي الله عليه وسلم ـ بعسر نطق الضاد الذي رأيناه قد تحوّل إلى «الضاد الضعيفة» التي أشار إليها سيبويه.

وزاد هذا التحول وأشكل أمره حتي وجد أهل العلم أن المسألة تقتضي حصر الألفاظ التي يكون الضاد من أحرفها، وحصر الألفاظ التي يكون الظاء من أحرفها[3].

(١) الصاحبي (باب القول في أفصح العرب).

(٢) المزهر ٢٢١/١. أقول: ينبغي ألا يعول الباحث في عصرنا على أقوال المتقدمين كثيراً، ذلك أننا غالباً ما نجد فيها اضطراباً وتناقضاً. ومن هذا ما ورد في قول ثعلب هذا من أن لغة قريش ارتفعت عن عنعنة تميم وتلتلة بهراء..... نقرأ هذا ثم نقرأ غيره مما أثر عن أبي عمرو بن العلاء وهو قوله: «أفصح العرب عليا هوازن وسفلي ثميم. الصاحبي ص٤١، فكيف نقول؟

(٣) لقد دلت الإشارات إلي ضياع الضاد في عصور العربية المتقدّمة. وقد اهتدي أهل الصنعة إلي هذه الفوائد التأريخية.

وقد رأينا بداية هذا الجهد اللغوي في القرن الرابع الهجري فراح نفر من اللغويين يستقري الألفاظ التي يكون الضاد من أبنيتها، وكذلك الألفاظ التي يكون فيها الظاء. ومن هذا كانت هذه المصنفات تشتمل على الطائفة الأولى من الألفاظ كما تشتمل على الطائفة الثانية.

على أننا لا نعدم أن نجد شيئاً من ذلك الدأب اللغوي قد اشتمل على دراسة المسألة الصوتية وكيف اختلط الصوتان فنجمت المشكلة.

وكنت قد شغلت بالضاد والظاء وما ورد فيه من كتب منذ أكثر من ربع قرن فكان لي من ذلك طائفة من المصنفات التي اضطلع بها السابقون على تراخي العصور.

إن مشكلة الضاد والظاء من المشكلات اللغوية في عصرنا، ولم تنل من عناية الدارسين قدراً كبيراً، وقد حذا المعاصرون حذو الأقدمين فأعادوا شيئاً من المصنفات لا تختلف كثيراً عما ورثنا من ذلك[1].

قلت: إن معرفة الضاد والظاء وتمييز الكلمة إن كان فيها ضاد أو ظاء لا يمكن أن يعرفه جمهرة المعربين إلا في المشهور من الكلم المتداول في الاستعمال. ولي أن أقول: ان الصوتين قد دخل أحدهما في الآخر.

ولي أن أثبت أن المشكلة قديمة والدليل على هذا أننا نجد من الكلم ما هو بالضاد، كما نجد من الكلم ما هو بالظاء، والدلالة متقاربة بين هذا وذاك، وهذا دليل على ان الاختلاط قديم حتي دخل ما هو بالضاد فيما هو بالظاء.

ومن هذا: «الضَلَع» وهو الاعوجاج خلقة يكون في المشي من الميل، قال محمد بن عبد الله الأزدي:

وقد يحمل السيف المجرّب ربّه على ضَلَع في متنه وهو قاطع

وقد يقرب من هذا «الظَلْع» بالظاء، وظَلَع الرجل والدابّة في مشيه يظلَع بمعني عَرِج وغَمَزَ في مشيه، قال كثير:

وكنت كذات الظلْع لما تحاملت على ظلْعها يوم العثار استفلّت[2]

(١) أقول: لعل المصريين في عصرنا ينفردون بين العرب في التفريق بين الصوتين، ولكن تمييزهم بينهما كما هو معلوم مسموع لا يعطي الضاد الفصيحة حقها الذي نص عليه أهل العربية. إنهم جعلوها دالاً مفخّمة كما جعلوا الظاء زايا مفخمة. وهذا كله بعيد عن الأصل.

(٢) انظر: ضلع وظلع في «لسان العرب».

فأنت تري أن الفرق يسير بين الدلالتين، بل إن التقارب واضح.

وفي هذا مادة «مظظ» وفيها «المماظّة»، قال أبو عبيد: هي المخاصمة والمشاقّة والمُشارّة، وشدّة المنازعة مع طول اللزوم.

وقال أبو عمرو: وفيه «مُظاظة أي شدة خَلْق»[1].

أقول: من غير شك أن هناك فرقاً في الدلالة بين المادتين، ولكنك تلمح فيهما خيطاً ينتظمهما، وهو يتمثّل في الشدّة التي نلمحها في أشتات هذه المعاني. ومثل هذا موادّ أخرى.

خاتمـــة:

هذه نبذة يسيرة في صوت الضاد في العربية وما عرض له على تراخى العصور.

ثم لي أن أتساءل: هل لنا أن نقول: إننا أمّة الضاد!!

أقول وأنا أنهي هذا الـموجز في شيء من تاريخ العربية: إن هذا الدرس شاق، فكان لي منه أن عرضت لشيء من السيرة اللغوية التي بدأت في الفصيحة ما قيل الإسلام وفي العصور الأولي بعد البعثة النبوية.

وكان من هذا فشوّ «اللحن» وظهور مظاهر الضعف اللغوي الأخري، ودخول الغريب الدخيل في ملاك العربية ثم نشأة المعرّب.

وانتهيت إلى ملامح من العربية الـمعاصرة التي تجسدت في الـمصطلح الجديد، ثم شيوع ما نُسب إلي الخطأ، وكيف كان للمعاصرين في دأبهم.

---

(١) لسان العرب: مضض، مظظ.